﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: 20 - 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن بَسْطِ الأدلَّةِ إلى مناقشةِ مُقْتَضيات الإنكارِ

لمّا كان الكفّارُ يُصِرّون على الكفر، ويُنكِرون التَّوحيد رغم وضوحِ البراهين؛ صار حالُهم كحال من يَظُنُّ أنَّ له قوَّةً تمنَعُه مِن عذابِ اللّه تَعالى، فكأنَّهم يتوهَّمون أنَّ بأيديهم جندًا يدفَعونَ بهِ نِقْمَتَهُ؛ إن نزلَتْ بِهِم، فناسب ذِكر مُقْتَضى إنكارهم بهذا الحال، وهو وُجودُ جُنْدٍ يمنَعُهُم مِن عذابِ اللّه تعالى، ووجود رازِقٍ سِوى اللّهِ تَعالى؛ إذْ بِنُزول العذاب ورفعِ الرّزق يهلِكُ الإنسان، فذكر أسباب الهلاك تلويحًا آخرَ بعد التَّصريح بإرساله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُندٌ﴾: (جند) تدورُ تصاريفُه على مَعْنَى التَّجمُّعِ والنُّصْرَةِ، ومنه: الجُنْدُ، وهُمُ الأعوانُ والأنْصارُ[1]، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ بالعربيَّةِ، إلى أنَّ أصلَ المادَّةِ دالٌّ على صلابَةِ الشَّيءِ وغِلَظِه، ومنه: الجَنَدُ، وهي الأرضُ الصُّلْبَةُ، ومنه: سُمّيَ العسْكَرُ جُنْدًا؛ لِما فيهم مِنَ الغِلْظَةِ[2]، والجُنودُ جَمْعُ جُنْدٍ؛ إذِ الجُنْدُ يُجْمَعُ على جُنودٍ وأجنادٍ[3].

2) ﴿غُرُورٍ﴾: الغُرور: مصدر غَرَّه يغُرُّه غُرورًا، أي: خدعه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ، ونِلتُ منه ما أُريدُه، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظّاهرُ مِن الشَّيءِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جند).
(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جند).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).

والغِرُّ: هو الَّذي لا يَفْطُنُ للشَّرِّ، ويَغْفُلُ عَنْهُ، ومنه أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَهُ في اليَقَظةِ، ونال منه ما يُريد، حتَّى يُدخِلَه في معصيةِ اللّهِ تَعالى، فيما يستوجِبُ به عُقوبتَهُ، فالَّذي يقوم بالغرورِ هو الخِبُّ، أي: الخَدّاعُ المُفْسِدُ، ويقال: غَرَّ فلانٌ فلانًا، معناهُ: قد عَرَّضَهُ للهَلَكَةِ والبَوارِ، والغُرور هو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطان الشَّرِّ[1].

3) ﴿أَمْسَكَ﴾: أصْلُ (مسك) يَدُلُّ عَلى حَبْسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِه، والإمساكُ: البُخْلُ[2]، وأصلُ إمساكِ الشَّيء: التَّعلُّقُ به وحِفظُه[3]، والإمساكُ أيضًا: القَبْضُ، والكفُّ والامتناعُ والاعتصام، يُقالُ: أمسَكْتُ الشَّيءَ بيَدي إمساكًا، أيْ: قَبَضْتُهُ، وأمسَكَ عن الطَّعامِ، أي: كَفَّ عَنهُ، وامتَنَعَ[4]، والمعنى: حبَسَ، ومنَعَ رِزْقَهُ بإمساكِ المَطَر ومباديه[5].

4) ﴿لَّجُّواْ﴾: تَمادَوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المَزجورِ عنه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ[6]، والمعنى: تمادَوا، واستمرّوا[7].

5) ﴿عُتُوّ﴾: العُتُوُّ: هو بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في الأمرِ، وعتا الشَّيخُ يَعتو عِتيًّا: بلغَ الغايةَ في السِّنِّ والكِبَرِ، أي: أسَنَّ، وكَبِرَ؛ فهو عاتٍ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ، والعتوُّ: بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في النُّبوِّ عنِ الطّاعة، ومجاوزةُ الحدِّ في التَّجبُّر والتَّكبُّر، والعاتي: الشَّديدُ الدُّخولِ في الفَساد، المُتَمَرِّدُ الَّذي لا يقبلُ موعِظَةً، والعُتوُّ: الخُروجُ عن الطّاعةِ[8]، ومعنى العتوِّ في الآية: العناد والاستكبارُ والطُّغيان[9].

6) ﴿وَنُفُورٍ﴾: أصلُ (نفر): يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[10]، وهو أيضًا: الإسْراعُ إلى الشَّيءِ، والانزعاجُ عنِ الشَّيءِ أو إليْهِ[11]، يُقال: نَفَرَ، يَنْفِرُ، نُفورًا ونِفارًا؛ إذا فَرَّ، وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، ومنْهُ: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا؛ إذا أسرَعوا في الخُروجِ لِقِتالِهِ، والنَّفْرُ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غرر)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (مسك).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (مسك).
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 478، والسّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 4/ 234، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (لجج).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 218.
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عتو - عتا).
(9) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 24.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(11) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 327.

الخُروجُ السَّريعُ مِنْ مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ[1]، ومعنى النّفور في الآية: الذَّهاب والبُعد عن الحَقِّ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

توبيخُ المُشركين بعَجْزِ آلهتهم عن النَّصر والرِّزق

تُخاطب الآيتان الكريمتان المُشركين الَّذين اتَّخذوا من دونه أولياءَ يَطْلبون عندَهُم النَّصر والرِّزق: مَن ذا الَّذي يملِكُ أن يكونَ لكم عونًا وناصرًا يدفَعُ عنكُم عذاب الرَّحمن؟ إنَّما الكافرون باللهِ تَعالى غارقون في أوهامٍ وخداعٍ، ثُمَّ تُسائِلُهُم: ومن هذا الَّذي يستطيعُ أن يرزُقَكُم؛ إن حبَسَ اللّهُ تَعالى عنكم رِزْقَه؟ لكنَّهم مع وضوح الدَّليل ماضون في طُغْيانِهم، مُستكبِرونَ عَنِ الحقِّ، مُعْرِضونَ عنه بنُفورٍ وعِنادٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ (أم) وبلاغةُ العَطْفِ بها:

الانتقالُ مِن التَّوبيخ إلى التَّبكيت تصعيدٌ في الاستدلالِ المَمْزوجِ بالتَّقريعِ

جاءت (أم) المُنقطعةُ في هذا الموضع؛ لتؤدّيَ وظيفةَ الإضرابِ الانتقاليّ؛ إذ نَقَلَت السّياق من توبيخِهم على تَرْكِ التَّدبُّر في آية الطَّير وما تومِئُ إليه من بديعِ قُدرة الله تَعالى، إلى تبكيتٍ أشدَّ وقعًا يتمَثَّل في نفي وجودِ ناصرٍ لهم من دونِ الله تعالى، فالمولى سُبحانه وجَّه أنظارَهُم ثانيةً إلى قوَّة بأسِه ونَفاذِ إرادَته، مبيِّنًا أنَّه لا أحد يأخذ بأيديهِم؛ إنْ أنزل بهِم عِقابَه، أو أمسَك عنهم رزقَه، و(أم) هُنا بمعنى (بل)، فهي للإضراب الانتقاليِّ من غرَضٍ إلى آخرَ، فهي تنقُلُ الخطابَ من إثباتِ الألوهيَّة الحَقَّة للّهِ وحده وتذكيرهم بضَعْفِهِم وافتقارهم إليه، إلى إبطال دعوى وجود نصيرٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 197.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 342، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 218، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 228، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 181، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 877.

أو شفيعٍ يردُّ عنهم ما قضى اللّهُ تَعالى به، ولا يسَعُهُم في هذا المقام إلّا الاعترافُ بالعَجْزِ؛ إذ لا يستطيعون تعيينَ ناصرٍ لهم إلّا أن يَسْلُكوا سبيلَ البُهْتان، وهو سبيلٌ لا يَلْجَؤون إليه في مثلِ هذا المَوْطِن لانكشاف زيفِهِ وافتِضاحِ أمْرِه[1].

براعَةُ استِعْمالِ أسلوبِ الاستفهامِ:

آثَر النّظمُ الكريمُ استِعْمالَ أسلوبِ الاستفهام بالأداة (مَن) في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، وغرضُه الإنكارُ، فالآية تُنكِر على المشركين وجودَ مَن يدفع عنهم العذابَ، وقد جاء الاستفهامُ على صورةٍ تُشعِر بالتَّحدّي والتَّعجيز؛ إذ لا قِبَل لهم بأن يُجيبوا: هذا أحَدُ أصنامِنا يَنْصُرُنا، فالمعنى أنَّ هذا الجُنْدَ الَّذي زَعَموه لا وجود له في الحقيقة، فالاستفهامُ جاء على وجهِ التَّعجيز عن التَّعيين، ومُقتضاه أنَّ هذا الجُنْدَ المزعومَ إنَّما هو أمرٌ مَعْدومٌ لا حقيقةَ له[2].

الاستفهامُ تقريريٌّ في أنْ لا ناصِرَ إلّا اللهُ، كما أنَّهُ لا مُمْسِكَ للطّير إلّا اللهُ

وأفادَ الاستفهامُ أيضًا مَعْنى التَّحقير؛ إذْ يُنزِل آلهتَهُم منزلةَ العدم، ويُظهِر خَواءَها مِن كلِّ قُدْرةٍ، ومن هُنا أعقب ببيان حالهم: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، أي: في باطلٍ وخداعٍ من الشَّيطان، زيَّن لَهُم الشِّرك، ووعدَهُم أمانيَّ زائفةً، أنَّ آلهتهم ستشفَعُ لهم، وأنَّه لا عذابَ بعدَ الموت، وأيضًا فإنَّ الاستفهامَ جاء عديلًا مقابلًا لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾؛ إذْ كلاهما في نسَقٍ واحدٍ، وهو تقرير عظيم قُدْرةِ الرَّحمن على إمساك الطّير في الجوِّ، ثُمّ التَّذْكيرُ بقُدْرَته على إنزال العذاب، فكما لا رادَّ لإمساك الطَّير إلّا اللّهُ، فلا دافِعَ لعذابِهِ ولا

(1) الحصنيّ، المقتطف: 5/ 288، وابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 99، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 40، 41.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 41.

مُمْسِكَ لرزقِهِ سِواهُ، وإخراج هذا التَّقرير في صورة الاستفهام لَهُ نكتَةٌ بليغَةٌ: فهو على طريق التَّهكُّم بهم؛ إذ صيغ السُّؤال بدَعْوى أنَّ النَّصر مُتقرِّرٌ لهم، والكلام في تعيين النّاصر لا في النّصر، فإذا عجزوا عن التَّعيين استجابةً لمقتضى السُّؤال؛ اتَّضَحَ بطلانُ دعواهم، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ [الأنبياء: 43][1].

تَعْيينُ مَرْجِعِ الإشارَةِ وبيانُ غَرَضِ الإشارة بالقَريب:

توبيخُ المُشْرِكِ بتَحْقيرِ الأصنامِ المُشارِ إلَيْها

يرجِعُ اسْمُ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ إلى جماعة الأصنام المعروفةِ لدَيْهِم والمُقامَةِ في الكعبةِ وما حولها، والَّتي اتَّخذوها جُندًا وعُدَّة، فجاء الاستفهام بـ (مَن) على سبيل التَّوبيخ والتَّحقير والتَّقريع: مَن هذا الجُند؟ أي: أهونُ مِن أن يُعرَف، أو يُلتَفت إليه، فجُعِل اسم الإشارةِ صفةً لاسم الاستفهام لزيادةِ البيان، ثُمَّ وُصِف ﴿هَٰذَا﴾ بالموصول ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، وجُعِلت جُملة ﴿يَنصُرُكُم﴾ خَبرًا عن اسم الاستفهام؛ ليكون التَّقدير: (أيُّ مخلوقٍ أحقرُ مِن هذا أن يَنْصُرَكُم مِن دون الرَّحمن)[2]؟.

نكتة التَّعبير بالموصولِ:

تأكيد معنى التَّحقير والتَّهوين المُستفادِ مِنِ اسمِ الإشارةِ

جيء بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ معَ صِلَتِه على جِهَةِ الوَصْفِ والبيان؛ لزيادةِ تَحْديدِ المُشار إليه وفَضْحِ عَجْزِه، فالموصولُ هُنا في قوَّة الصِّفة، وذِكْرُهُ بعدَ اسمِ الإشارة القريبِ ﴿هَٰذَا﴾ يُقوّي، ويؤكِّد معنى التَّحقير والتَّهوين[3].

سِرُّ انتخابِ الجُملة الاسميَّة:

الدَّلالَةُ عَلى معنى الثَّبات والدَّوامِ

عُبِّر بالجُملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على معنى الثَّبات والدَّوام؛ إذ شأنُ الجُندِ أن يكونوا على

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 231، والشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 223.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 228، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 21، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 41، 42.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 92.

أُهْبَةِ الاستعدادِ للنُّصرة في كُلِّ حينٍ، سواءٌ استُدعوا للقتال، أم لم يُستدعَوا؛ إذِ النَّصر لا يتحقَّق إلّا بوجود قوَّةٍ مُهيَّأةٍ له، فجاءت الجُملةُ الاسميَّةُ؛ لتصوير هذا المعنى الثّابت في زَعْمِهِم[1].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿جُندٌ﴾ وجَمْعِه:

تهوينُ شأنِ الأصنامِ وتَحْقيرُهُم

نُكِّر لفظ ﴿جُندٌ﴾، وجُمِعَ؛ تهوينًا لشأنِ الأصْنامِ وتَحْقيرًا لقوَّتهم، فَمَعَ كَثْرَتِهم وتَجَمُّعِهم لا يُبالى بِهِم، ولا يُعتدُّ بوجودِهِم في مقامِ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ القاهرةِ، فالتَّعبير بالجُند للتَّهكُّم[2].

فائِدَةُ اللّام ودلالاتُها السّياقيَّة:

مَن آثَرَ الوهمَ على الحقيقةِ؛ استحقَّ الجلدَ بسَوْطِ التَّهكُّم

اللّام في قوله تعالى: ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ دالَّةٌ على الاختصاص، أي: اختصاص النَّفع في زَعْمِهِم، والمعنى: أيُّ شيءٍ هذا الحقيرُ الَّذي تَزْعُمون أنَّه مُعينٌ لكم خاصٌّ بكم، تستعينون به على النَّصْر ودفْعِ الضُّرِّ، مُتجاوزين في ذلك نُصرةَ الرَّحمن وإرادتَه ومشيئتَه[3]؟ وفي الاستفهام الدّاخلِ على هذا القَيْدِ معنى النّفي المستفادِ بأدْنى تفكُّر، فإنَّ مقتضى الاستفهام الإنكارُ عليهم، ومِن شأن الاستفهام عن أمرٍ وهميٍّ نفيُه عمّا أُثبِت له، فدلَّ الاختصاصُ على معنى التَّهكُّم بالمخاطَبين.

وَجْهُ الجَمْعِ بينَ الفعليَّة والاسميَّة:

التَّناسُبُ بينَ المَعاني ودلالاتِ الجُمَلِ أصلٌ في اختيارِ الجُمَلِ

جاء الخبَرُ عن اسمِ الاستفهام جملةً فعليَّة ﴿يَنصُرُكُم﴾ الدّالة على التَّجدُّد، وجيء بالجملة الاسميَّة: ﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ الدّالّة على الدَّوام والثُّبوت؛ لأنَّ الجندَ يكون على استعدادٍ للنَّصر؛ إذا دُعيَ إليه سواءٌ أقاتَل أم لم يُقاتِل؛ لأنَّ النَّصر يَحْتاجُ إلى استعدادٍ وتَهَيُّؤٍ، فالمعنى: يَنْصُركم عند احتياجِكُم إلى نَصْرِه، فهذا وجهُ الجمعِ بينَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاوي: 19/ 209.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 24.

جملة: ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، وجملة: ﴿يَنصُرُكُم﴾، ولم يُسْتَغْنَ بالثّانية عن الأولى[1]، وأيضًا فإنَّ الاسميّةَ ارتبطت بالجُنْد الَّذين اختصّوا بالمشركين، وهو ما يُناسبه معنى الثَّبات، والنَّصرَ ارتبَطَ بمعنى الانطلاقَةِ والعمل على نُصْرَةِ الأولياء، وهو ما يُناسبه الفعليَّةُ.

بلاغَةُ الخِطاب بينَ الالتِفاتِ وعَدَمِه:

الالتفاتُ أُسلوبٌ بلاغيٌّ كلّيٌّ لا ملحَظٌ جزئيٌّ

التَفَت النَّظْمُ من الغَيْبَة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾، إلى الخِطاب في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾، وهذا الالتفاتُ فيهِ نُكتَةٌ بلاغيَّةٌ، وهي: المُبالغةُ في التَّهديدِ والتَّقريعِ والتَّبكيتِ، فالخطابُ المُباشرُ أوقَعُ في النَّفس، وأشدُّ إيلامًا؛ إذ يواجَه المُخاطَبُ بالتَّحدّي، ويُطالَب بالجواب، فيَنْكَشِفُ عَجْزُه، وتَظْهَرُ سوْءَتُه[2]، ويَحْتَمِلُ أن يكون الكلامُ عائدًا على الخِطابِ في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾؛ فلا التِفاتَ، وما بينهما اعتراضٌ مقصودٌ منه الاستدلالُ بالتّرهيب والتَّرغيب.

معنى ﴿مِّن دُونِ﴾ وسِرُّ المجازِ في التَّعبير بِها:

الدَّلالة على أنَّ ما يزعُمونَه مِن أولياءَ أو أنصارٍ هُم في مرتبةٍ أدنى وأحطَّ

آثَر النَّظم الكريم استعمالَ ﴿دُونِ﴾، وهو ظرفُ مكانٍ يدلُّ على السُّفل، وبلاغةُ استعمالِه تَظْهَرُ فيما يُفيده بأنَّ كلَّ ما انتُصِر بهِ مِنَ المَخْلوقينَ فهو دونَ اللّه تعالى، ومقامَه في أسفَلِ مقامٍ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]؛ للدَّلالة على أنَّ ما يَزْعُمونَه مِن أولياءَ وأنصارٍ هُم في مرتبةٍ دون، ولا يُمْكِن بحالٍ أن يُشاركوا الرَّحمن أبدًا في نُصْرَةٍ أو رزقٍ، بل هُم بمعزلٍ عن ذلك تمامًا، فالتَّعبيرُ بالمكان المنخفضِ ﴿دُونِ﴾ في موضعِ المُغايَرةِ فيه تصويرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، والشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 223.

آلهتِهم في حضيضٍ سافلٍ لا يَمْلِكون معه عُلوًّا ولا قُدْرةً، وهذا أبلغُ في التَّحقير والتَّبكيتِ[1].

نُكتة تَكرار اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾:

دلَّ تَكرارُ اسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، على أنَّ رحمةَ اللهِ تَعالى وحدَها هي المُنْجيةُ من عذابِه، وأنَّ بقاءَ الخلقِ في الأرضِ مع كُفرِهم إنَّما هو برحمةِ عمَّتْهم، لا بقدرةِ أصنامٍ ولا بشفاعةِ جُندٍ، وفيه تبكيتٌ لهم؛ إذْ أعْرَضوا عن الرَّحمن المانحِ للنَّصرِ والرِّزقِ إلى ما لا يَمْلِكُ لَهُم ضرًّا ولا نَفْعًا، فجاء الاسمُ مُكرَّرًا؛ ليُرسِّخَ أنَّ آثارَ النَّصرِ والرِّزقِ والإمهالِ إنَّما هي مظاهرُ لرحمةِ الرَّحمنِ الَّتي وسِعَت كُلَّ شيءٍ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنّ صفة الرَّحمن هي الحَبْلُ الأخير الَّذي على المُشْركين التّوجهُ إليه، والاستمساكُ به؛ للنَّجاةِ من بَحْرِ الظُّلُمات، وماء الأكْدارِ.

رحمةُ اللهِ تَعالى هي سببُ نجاةِ العبادِ وسِرُّ بقاءِ المُعانِدين

دلالَةُ النَّفي بأداةِ ﴿إِنِ﴾:

﴿إِنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ نافيَةٌ، أي: ما الكافرون إلّا مُنْغَمِسونَ في غُرورٍ شاملٍ يَحْتَويهم، ويطوِّقُهم، وفي هذا تأكيدُ ضَلالِهم التّامِّ[3].

دلالةُ تعريفِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ:

جاء لفظ: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مَعْرِفَةً جمعًا للاستغراقِ، فهو يدلُّ على أنَّ وصف الغرور شاملٌ لجميع الكافرين، وصيغَ باسمِ الفاعل؛ للدّلالة على عَراقَتِهم في الكُفر ورُسوخِهم فيه[4].

فائِدَةُ الالتفاتِ مِنَ الخِطاب إلى الغَيْبَة:

التَفتَ النَّظمُ الكريمُ من الخطابِ في قوله تعالى: ﴿لَّكُمۡ

الإعْـراضُ عَـنِ المُـعْـرِضِ عـدالـةٌ الـكـلامِ وبـراعَـةُ الأسلوبِ

(1) السّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 4/ 234، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 92، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 71.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1066.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 255، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 42.

يَنصُرُكُم﴾، إلى ضميرِ الغَيْبة في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾؛ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهُم وبيانِ قبائِحِهم لغيرِهم[1]، وفائدةٌ أخرى ليعمَّ الكلامُ جميعَ الكافرين، ولو جاء الكلامُ على الخطابِ؛ لتوُهِّم فيه الخُصوصُ، وهو ما يُرشِّحُهُ جَمْعُ اسمِ الفاعلِ المعرَّف ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

بلاغَةُ إظْهارِ ما حقُّه الإضْمارُ:

الكفرُ علّةُ كُلِّ خِسّةٍ وأصْلُ كلِّ عِلّةٍ

لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حملَهُ بعضُ المُفَسِّرين على أنّه في موضعِ الإضمارِ؛ إذْ تقدَّمَ ذِكْرُ الكافرين؛ وذلك لذمِّهم بصريح الكُفرِ وتعليلِ غُرورِهم به[2]، فهو كاشفٌ لسببِ معتقدات المشركين، وعلّة إعراضِ المكذِّبين، وهو الكفرُ بربِّ العالمين، وحَمَلَهُ بعضُهم على خلافِ ذلك[3]؛ ليَشْمَلَ عمومَ الكافرين، فهو مِن وضْعِ الظّاهر في موضعه، وهو الأليق بالسّياق.

بلاغَةُ القَصْرِ بطريقِ النَّفي والاستثناء:

مُـغـتَـقـداتُ الكافرين أوهامٌ زائـلَـةٌ وظُـنـونٌ غائلَةٌ

جاء قولهُ تَعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ قصرًا بأسلوبِ النَّفي والاستثناءِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ لقلبِ اعتقادِهم أنَّهم في مَأْمَنٍ من الكوارثِ بحمايَةِ آلِهَتِهم[4]، وتظهَرُ بلاغَتُه في كونه يَنْفي عن الكافرينَ كلَّ شيءٍ يكون سببًا في كُفْرِهم، ثُمَّ إثبات السَّببيَّة حصرًا في الغرور، ففيه مبالغةٌ في شأن الغرور المؤثِّرِ في كُفْرِهم، وأنّ الغُرورَ الَّذي انْطَوى عليهم هو ما أوردَهُم مهالكَ التَّكذيبِ والإعراضِ، فقُصِرَ حالُ الكافرين على الغرور لا يتجاوزونه، وأنَّهم لا يَمْلِكون من أمرِهم شيئًا سوى أن يَحْيَوا في أوهامٍ باطلةٍ وزخارفَ كاذبةٍ سوَّلها لهم الشَّيطانُ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 20.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.

بلاغَةُ استِعمال حرفِ الظَّرفيَّة:

إذا استَولى الغرورُ على صاحبِه؛ أغرَقَهُ في بحرِ كُفْرِه

جيء بحَرْفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾؛ للدّلالة على شِدَّة تلبُّسِهم بالغُرورِ، والغُرورُ هو توهُّمُ النَّفس حصولَ نَفْعٍ لها على خلاف الواقع، حتَّى صار يُحيط بهم إحاطةَ الظَّرف بما في داخله، فلا يُفارقونه، ولا يخرجون عنه، فالمعنى: ما الكافرون في حالٍ من الأحوال إلّا وهم غارقون في الغُرورِ، مُحاطون به من كُلِّ جانبٍ[1].

فائدَةُ استِعمالِ المَصْدَرِ نكرةً:

إفادةُ العُموم والشُّمول تهويلًا لحالِ الكافِرين

صيغَ لفظُ ﴿غُرُورٍ﴾ مَصْدَرًا منكَّرًا؛ لإفادة العُموم والشُّمول والتَّعظيم، وفيه تهويلٌ لحالِ الكافرين؛ إذ يَكشفُ عن غَرَقِهم في غُرورٍ عظيمٍ وضلالٍ فاحِشٍ، يزيّنُه لهم الشَّيطانُ ويُحيطُ بِهِم مِن كُلِّ جانبٍ[2].

بلاغَةُ التَّذييل بجملة الفاصلةِ:

توكيدُ نَفْيِ النّاصرِ مِن دون اللهِ تَعالى بوَصْفِ المُشْرِكين بالغُرور

أوثِرَ خَتْمُ آيةِ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾ بجملةِ: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾؛ لأنَّ النُّصرة دالَّةٌ على القوَّة، وهُم ادَّعَوها لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّهم ينصرون، فالكُفّار كانوا يمتَنِعون عن الإيمان، ولا يَلْتَفِتون إلى دعوةِ الرَّسول ﷺ، وكان تعويلُهُم على شَيئَين، أحدِهما: القوَّة الَّتي كانت حاصلَةً لهُم بسبَبِ مالِهم وجُنْدِهم، والآخَر: أنَّهم كانوا يقولونَ: هذهِ الأوثانُ توصل إلينا جميعَ الخيرات، وتدفع عَنّا الآفات، وقد أبطَلَ اللّهُ تَعالى كُلَّ واحدٍ مِن هذين الوَجهَيْن، وأنَّ الشَّيطان يَغرُّهم بأنَّ العذابَ لا يقَعُ بِهِم[3]، فقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ تذييلٌ ناعٍ عليهم ما هُم فيه مِن غايةِ الضَّلالِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 43.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 314، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 243.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 263، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 594، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 8.

بلاغَةُ تَكْرار العَطْفِ بحَرْفِ (أم):

زيادَةُ التّبكيت والتّقريع في سياقِ إقامَةِ الحُجَجِ على المُعانِدينَ

كُرِّر العطفُ بـ (أم) في قولهِ تَعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾؛ لزيادَةِ التَّبكيت والتَّقريع؛ إذ ينتقل بهم مِن تهافُتِ دَعواهُم في وجود جُندٍ ينصُرُهم مِن دون اللّهِ تَعالى، إلى تهافتٍ أعظمَ، وهو زَعْمُهُم أنَّ لهم رازقًا يَرْزُقُهم؛ إنْ مَنَعَهُم اللّهُ سُبحانَهُ رزقَهُ، فالآية تُقرِّرُ أنَّ أولئك الَّذين اتَّخذوهم جُندًا لا يملكون لأنفُسِهم رِزقًا، بل هم عيالٌ عَلى رزق اللّه ﷻ، فكيف يُتوهَّم أنَّهم يَمْلِكون نصرًا أو دفعًا عن غَيْرِهِم[1]؟.

بلاغَةُ الاستِفهامِ وغرَضُهُ:

المُبالغةُ في التَّبكيتِ والتَّوبيخِ والتَّحقيرِ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ إنكاريٌّ، جاء لنَفْيِ أن يكون ثَمَّ من يَمْلِكُ رزقَ النّاس غير اللّهِ تعالى، فجاء في صورةِ سُؤالٍ، والمراد بهِ: التَّوبيخُ والتَّقريعُ، فالقصدُ زيادَةُ إغلاظِ النَّكير عليهِم وإظهار عَجْزِهِم وضلالِ اعتقادِهِم[2].

فائدَةُ استِعمالِ اسمِ الإشارَةِ القَريبِ:

التَّهكُّمُ بالمُخاطَبينَ وتَحقيرُ عُقولِهِم والتَّهوينُ مِن شَأْنِ المُشارِ إليهِ

التَّعبير باسم الإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾ جاء للدّلالة على التَّحقير والتَّهوين مِن شأنِ المُشار إليه، أي: أيُّ شيءٍ يُساوي هذا الحقيرُ الذَّليلُ المَهينُ الَّذي تزعمونَ أنّه يملك أن يأتيَكُم برزقٍ إنْ أمسكَهُ اللّهُ تَعالى؟ فالإشارَةُ بلَفْظِ القَريب تُشْعِرُ بصِغَرِ قَدْرِه ووَضاعة مكانَتِه[3]، واستعمالُ اسْمِ الإشارة المُقترنِ بالاستفهام فيهِ دعوةٌ للبحثِ عَن هذا الرّازِق من دونِ اللّه تعالى، أي: ابحثوا عَنِ المُشار إليهِ بالقريب تهكُّمًا بهِم، وإزراءً عليهم بِما يعتقدونَ.

وَجْهُ التَّعبير بالاسمِ المَوصولِ:

جاء التَّعبير بالموصولِ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾؛

(1) المهائميّ، تفسير المهائميّ: 3/ 435.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 228، والبالسيانيّ، حسن البيان: 6/ 2611.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 43.

لتَنْزيلِه منزلَةَ الحاضِرِ في الأذْهانِ، المُسْتَقِرّ في المكان، وما على المخاطَبين إلّا الإشارةُ إليه، زيادةً في التَّهكُّم بهم.

فائدَةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

الاستدلالُ بأنَّ تجدُّدَ الأرْزاقِ لا يكونُ إلّا للهِ تعالى

جاءَ الفعلُ المُضارع ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ مُناسبًا للسّياق؛ إذ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، فالإنسانُ في كُلِّ لحظةٍ مُحتاجٌ إلى رزقٍ جديدٍ مُتكرِّرٍ، من ماءٍ ينزل، ونباتٍ يخرُج، وأقواتٍ تتوالى، فجُعِلَ الفعلُ بصيغةِ المُضارع؛ ليُصوِّرَ هذا التَّكرارَ الدّائمَ؛ لبيانِ أنَّ الرّازقَ يتجدَّدُ رزقُه، فلا يتوقَّفُ، ويستمرُّ عَطاؤُهُ، فلا يُمنَعُ، وأنَّ مَن كانَ كذلك؛ فهوَ اللّه تعالى، ولا يوجد سواهُ مِن الخَلْقِ مَن يستطيعُ ذلك، فتيسيرُ الأرزاق وتجدُّدها لا يملكهُ إلّا اللّه سُبحانَهُ، فإذا أمسكها؛ فلا قُدرة لمخلوقٍ على إنزالها أو إيجادِها[1].

بلاغَةُ الاستِدلالِ بالامتنانِ بالنَّصر والرّزق:

دفعُ الضُّرِّ وجلبُ الرّزقِ أصلٌ دالٌّ على ربّانيّة القادِرِ عَلَيْهِما

الجَمعُ بَينَ النَّصر والرّزق في الآيتين الكريمتَيْنِ مِن بديع البيانِ القرآنيِّ؛ إذ فيه تذكيرٌ بأنَّ الإنسانَ لا غنى له عن أمرَينِ عظيمَين: دفعِ الضُّر بالنّاصر، وجلبِ المَنفَعَةِ بالرّازق، فاللّهُ تَعالى وحدَهُ هو الَّذي يَمْلِكُ هذين الأمرين، فهو الَّذي يكفي عبدَه شرَّ أعدائه بالنَّصر، ويكفيه مَؤونَتَهُ ومصالحَه بالرِّزق، وبهذا يبيِّن السّياقُ أنَّ ما يدّعيه الكافرون من نُصْرَةِ آلهتهم أو رزقِها لَهُم ليس إلّا غرورًا، وأنَّ النّاصرَ والرّازقَ على الحقيقةِ هوَ اللّه الرَّزّاقُ ذو القوَّةِ المتينُ[2].

دلالَةُ استِعمالِ ﴿إِنْ﴾ دونَ (إذا):

سياقُ التَّهديد يُناسِبُهُ ما هو مظِنّةُ الوقوعِ

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطيَّةِ دونَ (إذا) في بابِ الرّزق؛ إذ إنَّ الرّزق أمرٌ لازمٌ للخلْقِ لا قيامَ لَهُم بدونه، فحياتهُم مُرتبطةٌ به ارتباطًا لا انفكاكَ له، ولا قوامَ لَهُم بدونه، وبذهابِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.
(2) ابن القيِّم، إغاثة اللهفان: 1/ 34.

الرّزقِ يُمْحَقُ الخَلْقُ، فكان ذِكْرُ إمساكِ الرّزق تهديدًا ترهيبيًّا، غرضُهُ الاستدلالُ على إسناد الرّزقِ لصاحبِهِ الحقّ، فكان المناسب لسياقِ التّهديدِ ﴿إِنْ﴾ الشّرطيَّة الدّالّة على مظنّة الوقوع، لا (إذا) الدّالّة على قطعيّة الوقوعِ، وفي ذلك إشارةٌ خفيَّةٌ إلى أنَّه ما كان الرّحمنُ الرَّزاقُ ليقْطعَ رزقَه عن خَلْقِه، وإن استنكفوا عن عبادتِه، فسبحانه ما أرحمَه! وما أبلغَ كلامَه! إذ جمع التَّرهيب والتَّرغيب في مُحْكَمِ بيانه.

دلالَةُ إضافَةِ لَفْظِ الرّزق إلى الضَّمير:

إضافَةُ الرّزق إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، بمعنى (مِن)، فالرّزقُ مِن اللهِ تَعالى، وهو مِن مُقْتَضَيات ربوبيّتِهِ تَعالى، فالرِّزق كلّه ملكٌ للهِ تَعالى، لا يملِكُ أحَدٌ مِن دونِه دفعَه ولا جَلْبَه، فَجَعْلُ الرِّزق مُضافًا إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللهِ تَعالى يُرادُ به إبرازُ أنّ الرِّزقَ مختصٌّ باللهِ تعالى، لا يُشارِكُه فيهِ غيرُه.

الـرِّزقُ مـن آثـار الـرُّبـوبـيّـة دالٌّ على الرّحمانيّةِ

بلاغَةُ اللَّفِّ والنَّشر:

الَّذي يقتَضيهِ النَّظم القرآنيُّ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ متعلِّقًا بِذِكرِ الخَسف؛ باعتبارِ أنَّ الجُنْدَ والخَسْفَ في الأرض، وأن يكونَ قولُه سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ متعلِّقًا بذِكْرِ إرسال الحاصِبِ؛ باعتبار أنَّ الرّزق والحاصب مِن السَّماء، فكأنَّه لمّا قيل: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أعقبَهُ بقَوْلِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾، أي: أأمِنْتُم مَن تَزْعُمون أنّه جندٌ لَكُم يَمْنَعُكم مِن عذاب اللهِ تَعالى وبأسِه؟ ولمّا قيل: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ أعْقَبَهُ بقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، أي: أتَظنّون أنَّ أصنامَكُم تَمْلِكُ أن تَرْزُقَكُم؛ إنْ حبَسَ اللهُ تَعالى رِزْقَه عنكم[1]، ويجوز أيضًا أن يكون

تـرتـيـبُ الـجُـمَـلِ بـاعـتِـبـارِ عـلائـقِ المَـعـانـي وتَـعـانُـقِ الـدّلالاتِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 21.

قولهُ تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ انتقالًا إلى معنًى آخَر، مرتبطًا بقوله السّابق: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، على أسلوبِ اللَّفِّ والنَّشر المعكوس، فيأتي الرِّزق بَعْدَ الذِّكر السّابق له؛ ليبيّن انفرادَهُ تَعالى به دونَ سِواهُ[1].

بلاغَةُ الفَصْلِ بـ ﴿بَل﴾ في الجملةِ الكريمَةِ:

جاء حرفُ ﴿بَل﴾ في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾؛ لنَقْضِ ما قَد يَسْبِقُ إلى وهْمِ السّامع من انتفاعِ القَوم بالآيات والزَّواجر المُتقدِّمة؛ لقوّتها وبليغ أثرِها، فكأنَّ السّامعَ يتساءَلُ: لعلَّهم تأثَّروا، فاتَّعظوا؟ فجاء الاستئناف البيانيُّ بـ ﴿بَل﴾؛ ليُبطل هذا الظَّنَّ، ويكشفَ الحقيقة المُخالِفَة، وهي أنَّهم تَمادَوا في العِناد، وزادوا في الاستِكبارِ والنُّفورِ[2].

كَشْفُ تماديهِم في العِناد وازديادِهِم في النُّفور

نَوْعُ حَرْفِ ﴿بَل﴾ ودِلالَتُه:

جاءت ﴿بَل﴾ لإضرابٍ انتقاليٍّ يُبطِل ما قد يُتوهَّم مِن تأثُّرهم بالأدلَّةِ والبراهين، ويُبرز الحقيقة الرّاسخة أنَّهم لم يُذعِنوا للحقِّ، بل تَمادَوا في عُتوٍّ واستكبارٍ، ونفورٍ وشرادٍ عن الهدى، أو للانتقالِ مِن غرَضِ التَّعجيزِ إلى الإخبارِ عن عِنادِهم[3]، وهذا على جَعْلِ ﴿بَل﴾ بمعنى الإضرابِ الإبْطاليِّ، وإذا جَعَلناهُ انتقاليًّا؛ فهو للانتقالِ إلى بَيان مَوْقِفِهم مِن البعث والوحي، والمعنيانِ مُتقاربان.

الانتقالُ مِن غرَضِ التَّعجيزِ إلى الإخبارِ عن عِنادِهم

بلاغَةُ الاستِعارةِ في الفِعْلِ ﴿لَّجُّوا۟﴾:

اختير فعل ﴿لَّجُّوا۟﴾؛ لِما فيه من دلالةٍ على التَّمادي المُتكرِّر والمتَرَدِّد[4] والمُبالَغ فيه، فهو يُفيد الإغراقَ في العناد وتجاوزَ الحَدِّ، حتَّى صار العنادُ لَهُم سجيَّةً غالبةً، فتمادَوا في الباطل، وازدادوا

التَّمادي المُتكرِّر والإغراقُ في لُجَجِ الباطلِ سَجيّةُ المكذِّبين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 43.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 44.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لج).

نفورًا عن قبولِ الحَقِّ[1]، وهو مأخوذٌ من لُجَّة البَحْرِ؛ إذ يتردَّد ساحِلُه وأمواجُه، ففيه تشبيهُ رجوعِ المُشْرِكين إلى عتوِّهم وطغيانِهم بلُجَّة البحر، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ونكتةُ ذلك بيانُ إغْراقِهم في باطلِهم وطُغْيانِهم.

نكتَةُ الالتِفاتِ مِنَ الغَيبَةِ إلى الخِطاب:

الإعـــراضُ عَـنِ المُعانِدين مزيدُ تبكيتٍ وشديدُ تقريعٍ

التَفَت النَّظمُ الكريمُ من الخطابِ إلى الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٖ﴾؛ لإبرازِ شدَّة التَّوبيخ والتَّقريع؛ إذْ يواجَهون أوّلًا بخِطاب مُباشر فيه تبكيتٌ وتهديدٌ، ثُمَّ يُعرَض عنهم إلى الغَيْبَةِ؛ تحقيرًا لشأنِهم وحطًّا مِن قَدْرِهم، فيزدادُ الوعيدُ وقْعًا وشدَّةً[2]، ويُقوّي هذا المسلكَ معنى الإضرابِ المُخْبِر عن واقِعِهم.

بلاغَةُ استِعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

الـــدّلالَـــةُ على شِـدَّة التَّلبُّس بالعُتوّ والنُّفور

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٖ﴾ استعمالًا مجازيًّا؛ إذ دلَّ على شِدَّة التَّلبُّس بالعتوِّ والنُّفور، حتَّى أصبحوا مغمورين بالعِناد والنّفور، لا يُفارِقُهُم، فصار العُتوُّ والنُّفور محيطَين بهم إحاطَةَ الظَّرف بالمَظْروف، فلا حالَ لَهُم إلّا حال العنادِ والشُّرود عَنِ الحَقِّ[3].

فائدَةُ الاستعارَةِ في لَفْظَي ﴿عُتُوّٖ وَنُفُورٖ﴾:

تـصـويـرُ العـتـوِّ والـنُّـفـور ببحرٍ يـــغـــرَقُ فـيـهِ المشركون

شُبِّه العتوُّ والنُّفور بالبحر في قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٖ﴾، وحُذِف المشبَّه به، ورُمز إليه بإحدى لوازمِه، وهو فِعْل ﴿لَّجُّواْ﴾، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وفائدَةُ الاستعارَةِ تَصْويرُ العُتوِّ والنُّفور الَّذي لجَّ فيه أولئك المُشْرِكونَ المُعانِدون ببَحْرٍ يَغْرَقونَ فيه؛ لبَيان إحاطةِ العتوّ والنُّفور بهِم كإحاطةِ البَحْرِ، فإنَّ شأنَ ماءِ

(1) نجم الدّين الكبرى، التَّأويلات النَّجميَّة: 6/ 189، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 93، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1066.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 44.

السّاحل الَّذي هو لُجّة البَحْر أن يَرْجِعَ إلى البَحْرِ فيندمِجَ فيه، وهكذا شأنُ أولئك مع العتوِّ والنُّفور.

نُكتَةُ تنكيرِ لَفْظِ ﴿عُتُوّ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿عُتُوّ﴾؛ ليُفيد التَّهويلَ، وجيء به مصدرًا؛ ليدلَّ على مُطلقِ العُتوِّ؛ إيذانًا بأنَّهم غارقون في عنادٍ شديدٍ وفسادٍ عظيمٍ لا حَدَّ لَهُ[1].

وَجْهُ العَطْفِ ودلالتُه:

عُطِف لفظُ (نفور) على لفظ ﴿عُتُوّ﴾؛ ليُجْمَع بين نوعَي الفسادِ: فسادِ القوَّة العَمَليَّة بالعُتوِّ المُستنِد إلى الحرْصِ على الدُّنيا، وفسادِ القوَّة النَّظريَّة بالنُّفور النّاشئِ عن الجهل، فصاروا في ضلالٍ مُركَّبٍ يَجْمَعُ بَيْنَ فساد العمل وفساد الفِكْرِ والنَّظر[2].

الجَمْعُ بَيْنَ فساد العَمَلِ وفسادِ الفِكْرِ والنَّظر

نُكتَةُ استِعمالِ مفردة (نفور) نكرَةً:

نُكِّر لفظ (نفور)؛ ليُفيد التَّهويلَ من شِدَّة فِرارهم عنِ الحَقِّ، وصياغتُه مصدرًا تدلّ على المُبالغة في اتّصافهم بالنُّفور، وهذا يدلُّ على حقارتهم؛ إذ صارَ حالُهُم كحالِ الحُمُر المُستَنْفِرَة الَّتي لا تعقِلُ، فجُمع لهم بَيْنَ التَّحقير لشأنِهم والإشارة إلى جَهْلِهِم المُفرطِ وغَباوتهم الشَّديدة[3]، فإنَّ شأنَ الجاهلِ أن يفِرَّ مِن أسبابِ نَجاتِهِ.

التَّحقيرُ من شأنِ الجاهِلِ النّافر عن أسبابِ نَجاتِهِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القَبْض والإمساك:

القَبْضُ هو الأخذ والتَّملُّك، يقال: قَبَضْتُ الشَّيءَ قَبْضًا، أي: أخذته، وصار الشَّيءُ في قبضتك، أي: في مِلكك، ويصلحُ للقَبْضِ الفعليِّ بالكَفّ، وللحَوْزِ، فيُقال: قبض الدّارَ والأرض: حازها، والقَبْضُ: خلاف البَسْطِ[4]، فيأتي بمعنى التّضييق، فقَبْضُ الرّزقِ تضييقُه.

القَبْضُ في الرّزق بمعنى التَّضييق، والإمساكُ بِمَعْنى المَنْعِ

(1) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 827، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 15/ 1066.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 594.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 93، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 30/ 43.
(4) أبو نصرٍ الجوْهَريُّ، الصّحاحُ، ومُحمَّد جبل، المُعجَم الاشتِقاقيُّ المُؤَصَّلُ: (قبض).

أمّا الإمساكُ؛ فهو حَبْسُ النَّفس عَن الفِعْل، ويكثُرُ استِعْمالُهُ في الامتناعِ عَمّا تَدْعو إلَيْهِ الشَّهْوَة، يُقال: أمْسَكَ عَن الإفطار، وقد يُستعمل أيضًا فيما لا تدعو إليه الشّهوة، كَما يُقال: أمْسَكَ عَن الكلام، وأصْلُ الإمْساكِ: حَبْسُ النَّفس عَن الفِعْل، ونقيضُ الإمساك: الإرْسالُ[1]، ويأتي الإمساكُ بِمَعْنى المَنْعِ، وهو المقصودُ في الآية، فالقَبْضُ فيما يتعلَّقُ بالرّزق بمعنى التَّضييقِ، والإمساكُ بمَعْنى المَنْعِ.

الكَيْدُ والمَكْرُ والخِداع:

الخِداعُ أعَمُّ مِنَ الكَيْدِ، والكَيْدُ أقْوى دِلالَةً مِنَ المَكْرِ

الفرقُ بَيْنَهما[2] أنَّ الخداع إظهارُ أمْرٍ لِغَيْرِكَ مع إضْمارِ خِلافِهِ، ولا يَلْزَمُ مِنْهُ أن يكونَ بعد نظَرٍ وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ، ولو كان ذلكَ بديهَةً من غير فِكْرٍ سابقٍ، بخلاف الكَيْدِ فإنَّه – في حقِّ المخلوقِ – لا يكونُ إلّا بعد تدبُّرٍ وفِكْرٍ ونظَرٍ.

وأمّا المَكْرُ؛ فهو مِثْلُ الكَيْدِ في كَوْنِه – في حقِّ المَخْلوق – لا يكون إلّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ المَكْرِ.

(1) أبو هِلالٍ العَسْكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 112.

(2) أبو هلالٍ العسكريّ ونور الدّين الجزائريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 313، ومحمد ياس خضر دوري، دقائق الفروق في البيان القرآنيّ، ص: 139 - 142، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"